هـذا في فلسطين ومصر ، أما في بلاد بارس فكانت سائدة فيها الديانة الفارسية « الزرادشتية » بعد أن عبثت بها أيدي الأهواء والأغراض ، وبدلت فيها وزادت عليها مطامع رجال الدين وشهواتهم ، وقد ظلت هذه السيادة طول حكم الدولة الساسانية ولم تحن الرأس إلا في القرن السابع بعد المسيح حين هاجمها الاسلام وهو في عنفوان شبابه ، فذابت أمام سطوته ذوبان السكر في المياه (على حد تعبير أحد المؤلفين الفرنسيين) وإن كان البعض الآخر من الباحثين يجزم بأن الديانة « الزرادشتية » لم تتلاش تماماً أمام الاسلام ، وإنما تركت آثاراً تذكر في بعض نواحيه ، إذ ليس بعض الفرق الاسلامية إلا لوناً من ألوان الديانة الفارسية ، بل ليس تغني عمر الخيام بالخمر وتقديس بشار بن برد للنار وزندقة ابن المقفع ومروق الجاحظ في بعض آرائه إلا من بقايا الديانات الفارسية .

غير أن الذي لا شك فيه هو أن الاسلام قد اكتسح الديانة « الزرادشتية » اكتساحاً ملموساً ولم يدع لها من معتنقيها إلا نحو عشرة آلاف نسمة في بلاد الفرس ونحو مائة ألف في بلاد الهند وهم الذين أشرنا اليهم في مبدأ حديثنا عن الفرس ، وقلنا إنهم لا يزالون يُعرِّضون جثث موتاهم للوحوش .

أما المانوية فقد انتقلت إلى أوربا مع الرومانيين الذين كانوا في بلاد فارس ، ثم جعلت تنتشر في جميع أجزاء الامبراطورية الغربية الرومانية ، ولكن في خنوع وإذعان للمسيحية جعلاها من الأهازيج أقرب منها إلى المذاهب الجدية كأن تصرح مثلاً بأن خالق الكون هو إله الشر ، وأن المسيح هو إله الخير تصمه العتيف الذي ضرب المثل الأعلى على خيريته بتضحية نفسه للصلب في خير الإنسان .

ما زالت هذه الديانة المانوية تتلاشى في المسيحية على هذا النحو حتى ابتلعتها نهائيا ولم يبق لها في الوقت الحاضر من أثر في أوربا إلا على الآراء الاجتماعية مثل الاشتراكية والشيوعية وما شاكلهما من الآراء المتطرفة التي اعتنقتها المانوية بعد عصرها الأول ثم حملتها معها إلى أوربا فكانت جرثومة كثير من المذاهب الاجتماعية الأوربية في العصور الحديثة .

« يتبع »

محمد غلوب

التخيـــــل (١)

للدكتور جميل صليبا

التخيل بحسب اصطلاح الفلاسفة معان كثيرة فبعضهم (ديكارت) جعله قوة مصورة تعيد ما في الخيال من الصور وتمثله تمثيلا محسوساً . وبعضهم جعله قوة مبدعة تركب الصور وتؤلف المعاني الجديدة وتخترع . وبعضهم جعله قوة وهمية كاذبة تنشأ عنها الأوهام والأحلام ، حتى لقد وصف تلاميذ ديكارت هذه القوة بقولهم: إنها « مجنونة المنزل» و « باعثة على الخطأ والرذيلة» أما فلاسفة العصر الحاضر فيجدون التخيل ضرورياً للانسان لأنه يخفف آلامه ويحبب إليه الحياة ويكشف له عن أسرار الكون . إن اختلاف معاني التخيل جعل أحد الفلاسفة المعاصرين يقول : إن هذه الكلمة الضرورية للغة العامة يجب أن تزول من قاموس علم النفس لكثرة معانيها(٢) وأنه يمكن استبدالها بكلمات أوضح منها كالصورة والابداع والأحلام . على أنه لا غنى لنا عن هذا الاصطلاح لأن في كل من الصورة (التخيل التمثيلي) والابداع والأحلام شيئاً من التخيل . ولنبحث الآن في التخيل المبدع

التخيل المبدع

التخيل التمثيلي والتخيل المبدع : الحقيقة والخيال

التخيل التمثيلي هو ذاكرة بدون عرفان ، أو هو كما قيل رجوع الصور النفسية إلى ساحة الشعور . ونحن نعلم أن الصورة هي بقاء الاحساس في الشعور بعد غياب المؤثر . أو هي ذكرى الاحساس . فإذا استرجع الإنسان صورة جبل أو نهر ولم يعرف أي جبل يرى ولا أي نهر يتصور كان تخيله تمثيلياً Imagination reproductrice لأن الخيال يعيد ما حفظته النفس وبقي فيها بعد غياب المحسوسات. فهو إذن شبيه بالذاكرة إلا أنه كما قلنا ذاكرة بدون عرفان . إن هذا الخيال التمثيلي يقتصر كما ترى على استرجاع الصور المحفوظة في

(١) من كتاب « علم النفس » للدكتور جميل صليبا يقوم بطبعه « مكتب النشر العربي بدمشق »

(٢) غوبلو Goblot المفردات الفلسفية . مادة التخيل . الخيال بحسب الاصطلاح غير التخيل (ابن سينا)

النفس . أما التخيل المبدع فيركب هذه الصور ويستخرج منها نماذج جديدة . أنظر إلى المصور ، إنه يرسم بريشته صورة خيالية يراها فى أعماق نفسه فهو لم يسترجع صورة بسيطة محفوظة فى نفسه فقط بل ركب بعض ما فى هذه الصور البسيطة إلى بعض فألف منها صورة جديدة .

إلا أن هذا الفارق بين التخيل التمثيلي والتخيل المبدع ليس مطلقاً ، لأن الخيال التمثيلي لا يسترجع الصور النفسية كما هى بل يبدلها فيمحو بعض عناصرها ويضم إليها بعض العناصر الجديدة. وقد بينا ذلك عند البحث فى الشعور وخطور الذكريات . فالذكريات ليست صوراً مطابقة للماضى بل هى فى الغالب مركبة من الماضى والحاضر معاً ، لأن النفس تنشئها إنشاء ، والادراك ليس بسيطاً بحيث يحدث فى النفس خيالا مطابقاً للشئ المدرك فقط . بل هو إنشاء صورة مركبة من عناصر نفسية متحولة . فالصورة ليست إذن خيالا ثابتاً بل هي حقيقة متبدلة ، حتى لقد قال المسيو (لوروا) : « الادراك والتذكر كل منهما اختراع » .

وعكس ذلك صحيح أيضاً . أى إن التخيل المبدع لا يبدع الصور من العدم بل يستمد عناصرها من الواقع . فالخيال إذن منسوج من الحقيقة . وقد فرقوا فى الإبداع بين الصورة والمادة فقالوا : إن التخيل لا يبدع مادة جديدة بل يقتصر على جمع بعض الصور إلى بعض فيحلل ويركب ويصغر ويكبر . فهو يبدع صورة جديدة ، إلا أن مواد عمله مقتبسة كلها من الواقع . فالصورة وحدها إذن جديدة ، والتخيل مبدع بمعنى أنه يجمع العناصر بعضها إلى بعض فيؤلف منها مركبات جديدة . فكل إبداع هو فى الحقيقة تركيب .

وإذا قيل : إن العقل لا يقتصر فى الابداع على جمع الصور وإنه إنما يجمع هذه الصور إلى المعاني المجردة والأحوال الانفعالية والنزعات والاهواء ، قلنا مهما كان نوع التركيب ، ومهما كانت حالة العناصر فان الابداع ينتهى دائماً إلى الصور . قال أحد العلماء المعاصرين ماخلاصته : « المخترع شاعر حدسى . قد يقال إن هناك عقولاً منطقية ، جدلية لا تتقدم إلا بالقياس والخطاب ـ سيراً على طريقة (فوبان) الذى كان لا يهجم على حصن قوى إلا بعد أن يعد للأمر عدته ـ غير أن الأمر على خلاف ذلك ، لأن هذه العقول حدسية أيضاً . فهى تجمع ثنايا الطرائق وأصول المنطق وأحكام العقل وصور القياس بعضها إلى بعض بدلاً من أن تجمع الألوان والأصوات والأوزان والاستعارات الحسية ، والأوضاع المشخصة » . ومهما كان الاختراع فى أوله بعيداً عن الصورة فهو دائماً يقلب المثال المجرد إلى صورة محسوسة تدل عليه وتجيبه وتخرجه من أعماق اللاشعور إلى الحياة الظاهرة الملموسة .

هل تستطيع النفس أن تبدع الصور ؟

إن أكثر علماء النفس يقولون مع « لوك » Loch . ٧ إن النفس عاجزة بنفسها عن ابداع أية فكرة بسيطة . فكل صورة هى إذن نسخة ، ولا تصور إلا بالاحساس . إن الأكمه لا يستطيع تصور الألوان ، والأصم لا يستطيع أن يبدع الألحان . فالتخيل ليس مبدعاً من حيث هو موجد ، بل هو مبدع من حيث هو مركب

إلا أن الفكر يجمع كما قلنا فى هذا التركيب عناصر مختلفة فهو يجمع الصور المشخصة إلى الفكر المجردة ، والنزعات والأهواء . ولعله لا يعجز عن إبداع بعض الفكر ، أما الصور فلا يتناولها إلا عن طريق الاحساس ، وإذا تمثلها أمكنه أن يمزج بعضها ببعض ويحصل بهذه الممازجة عن صور جديدة . نعم إن الأكمه لا يستطيع تخيل الألوان ، ولكن البصير يستطيع أن يتخيل ألواناً متوسطة مركبة من الألوان البسيطة فيتصور لوناً بنفسجياً أكثر احمراراً من البنفسجى الطبيعى . قد يقال إن الطبيعة أغنى من الفن ، وإن اختراعات المصورين ليست إلا تقليداً لما فى الطبيعة من الصور المختلفة وإن فى غروب الشمس من الألوان مالا يستطيع أعظم المصورين أن يأتى بمثله . هذا صحيح ، لأن الألوان الطبيعية أكثر تنوعاً من الألوان الفنية إلا أن أصوات الطبيعة أفقر من أصوات الفن ، وهى فى الغالب على نمط واحد ، كحفيف الأغصان وتغريد الطير ، وخرير الماء ونقيق الضفادع . إن آلات الفن ليست من هبات الطبيعة بل هى من اختراع الانسان . نعم إن الانسان لم يتصور بوضوح لحن العود قبل اختراعه له ولكن العود لم يتكامل إلا بعد أن انتقل الانسان به من صوت إلى آخر وتخيل فى كل دور من أدوار انتقاله صوتاً أحسن وقعاً وأعمق تأثيراً من الأصوات المألوفة ، ففى كل درجة من درجات هذا التكامل قد تقدم الخيال وأبدع صورة جديدة لا عهد للفن بها من قبل .

« دمشق » جميل صليبا